ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٥ —

أخبار قصيرة

١ — إعترضت مجلة الحاصد على عبارة «ليلى المريضة بالعراق» وقالت : إن البيت المشهور يجعلها مريضة فى العراق لا بالعراق ، وتسألنا عن معانى الباء ، ولكنا نعرف أن الجدل فى النحو أخرج سيبويه من بغداد وهو محموم ، فلنصرح بأن الباء فى العنوان القديم لم يكن لها فى ذهننا معنى غير الظرفية ، على حدّ ما قيل

ليس لى يا بنى أعداء . كل مالى يابنى خلائق

فاضطرب الكتابى المسكين والشك يأكل قلبه ، وصاح : لكن آراء دارون رباه تخالف أقوال كتابك

فأكد له الله قوله فى حلم وحزم : « كل ما أخلص كاتبوه فى كتابته فهو وحى من عندى ، وكل ما استقام على الصراط فهو من مصدر الاستقامة »

* * *

وفى بعض المحادثات يقول ماركس لجيتى : إن من يعمل يعيش. فيقول جيتى : إنك إن أقمت حق العامل على عمله لا على صنعته الإنسانية قتلته ، ولا سيما حين تكثر الآلات وتقل الحاجة إلى الأعمال والعاملين

وهكذا تفيض الرسالة بالطرائف التى لها مثل هذه الطلاوة أو هذه الدقة أو هذه الفكاهة . وقد رأيت أن أشرك قراء العربية فى نصيب منها حتى ينقلها ناقل برمتها وهى قلما تربى على مائة صفحة صغيرة

عباس محمود العقاد

حاشية : للأستاذ أديب عباسى جواب منى على مناقشته التى عقب بها على بعض مقالاتى السابقة . وربما أضفت إلى هذا الجواب بيان ما سأل عنه الأستاذ عبد المجيد العبد وطلب المزيد من شرحه ، وأقول لحضرته إن اسم الكتاب الذى سأل عنه بالانجليزية هو Nations can live at Hone واسم مؤلفه Dr Willcox

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فانى وقيار بهـا لغريبُ

فاتركنا ياسيد أنور ما تركناك :

٢ — نشرت جريدة البلاد كلمة لحضرة سكرتير الاذاعة اللاسلكية ينفى بها ما نشر فى مجلة الرسالة عن إغفال أسطوانة السيدة نادرة :

يقولون ليلى فى العراق مريضة فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ويؤكد أنه لم تصدر أية إشارة من أية جهة بمنع هذه الأسطوانة من الاذاعة ، ونجيب بأننا سمعنا ذلك الكلام من ليلى وهى عندنا أصدق

٣ — كثر الاستفهام عن السيد الذى يقيم بالكاظمية والذى تفضل فهدانى إلى منزل ليلى ، ولكن لذلك السيد مكانة اجتماعية تجعل من العسير أن نصرح باسمه فى هذه الأحاديث الوجدانية

٤ — طلب جماعة من أدباء بغداد أن أعلن أن ليلاى غير ليلى الزهاوى ، فان الزهاوي كانت ليلاه هى العراق ، وأنا أصرح بأن ليلاي فى بغداد هى ليلى المريضة فى العراق ، وهى معروفة لجميع الناطقين بالضاد

* * *

وبدت لى ظمياء فتاة شاعرة العواطف حين وصفت آذار بأنه شهر الأزهار والرياحين . وغلب الأدب على الطب فأحببت أن أعرف كيف رأت مصر وكيف رأت النيل . والحق أن ظمياء فى جوهرها فتاة مليحة ، ولكنى أغالب نفسى فأقول إنها شوهاء مداراة للمرأة جميلة التى تفحص أسارير وجهى بعينين كأنهما عينا العُقاب ، وما أدرى والله كيف نجحت فى اصطناع التجمل والتوقر وكنت طول حياتى مفضوح النظرات

— ظمياء

— نعم يا مولاى

— كيف كان طريقكما إلى مصر يا بنيّتى ؟ بالسيارة أم بالطيارة ؟

— لم يكن السفر بالطيارة مألوفاً فى سنة ١٩٢٦ وإنما ذهبنا بالسيارة إلى الشام ، ثم اخترقنا فلسطين حتى وصلنا إلى قناة السويس ، وقد قضينا على شاطىء القناة ثلاث ساعات مرت كلمحة الطرف بفضل ما غرقنا فيه من التأملات

— وهل التأمل يقصر الوقت يا ظمياء ؟

— لا أعرف يا سيدى الطبيب ، وإنما أذكر أن ليلى كانت تحفظ قصيدة شوق في قناة السويس فظلت تنشد طول الوقت وهى في حلاوة الرشأ النشوان

— لا أعرف أن لشوق قصيدة فى قناة السويس ، وإنما أعرف أن له فيها آية من آيات النثر الفنى

— لا . يا سيدى ، هي قصيدة

— هل تحفظين منها شيئاً ؟

— أحفظ المطلع :

تلك يا ابْنَيَّ القناه لقومكما فيها حياه

— هذه ليست قصيدة يا ظمياء

— ليلى تقول إنها قصيدة

— القول ما قالت ليلى ! ثم ما ذا يا ظمياء ؟

— كانت ليلى تنشد ما تنشد ثم تحاورنى فى أمر المصريين الذين حفروا القناة ، ومن رأى ليلى أن حفر القناة أعظم عمل قام به المصريون فى التاريخ

— ولكنها أضرت مصر يا ظمياء

— هذا يا سيدى كلام الساسة لا كلام الأطباء . وهل يضر مصر أن تكون صاحبة الفضل على العالمين فتنشىء من المرافق ما بخلت به الطبيعة القاسية على الانسانية ؟ إن الحياة يا سيدى الطبيب لا تنهض إلا بفضل التضحية ، وقد ضحت مصر بمالها وسلامتها فى سبيل الانسانية ، وسيجزيها الله على ذلك خير الجزاء

— هذه فلسفة يا ظمياء ، وما تهمنى الآن ، ثم ماذا ؟

— ثم دخل الليل ونحن على الشاطىء ، وطلع القمر فتحول الوجود إلى موجة فضية تفتن القلوب ، ونظرت إلى ليلى فرأيت انعكاسات القمر على وجهها آية من آيات السحر والفُتون

— دخلنا فى الغزل يا ظمياء

— أنت الذى شجعتنى على الوصف يا مولاى

— اسمعى ، هنا سؤال مهم : هل رأيت ليلى على القناة فى حال تختلف عما كنت تعهدين وهى في بغداد ؟

— أنا أصغر من ليلى سنًّا كما تعرف

— مفهوم ، مفهوم ، وهل تخفى على مثلى هذه الفروق !

— لم أكن أعرف يومئذ ما هو الحب ، لولا علاقة سطحية بابن عمي عبد المجيد

— يظهر أنك فتاة متعبة وحمقاء . ماشأنى بعلاقاتك السطحية أو العميقة مع ابن عمك عبد المجيد ؟

— أنا أريد يا سيدى أن أقول إنى لم أكن يومئذ أدرك كيف تتغير أسارير الفتاة حين يطلع القمر ، أو حين يهب النسيم ، وإنما فطنت إلى ذلك بعد ما ثارت العواصف حول ليلى . وأقول لك إنى فهمت الآن أن ليلى كانت تتأهب لحب مجهول ، فقد كان للقمر على وجهها أضواء وظلال يطير لها لب الحكيم ، وقد مددت ذراعىّ فطوقتها فانعطفتْ علىّ وقبلتنى قُبلة عطف لن أنساها ما حييت !

« وهنا تذكرت الوجه الذى كان القمر يسبغ عليه ألوان الأضواء والظلال ، وجه الانسانة النبيلة التى أتحفتنى بصورتها الغالية لأدفع بها ظلام الليل فى بغداد . وكدت أتنهد ثم تماسكت ولى قدرة على ضبط النفس فى بعض الأحوال »

— كفى ، كفى

— تحب يا سيدى أن أصف كيف رأينا القاهرة أول مرة ؟

— إن كنت تحبين ذلك ...

— أحب أن أقول لتسمع الست جميلة ، فهى تحب ذلك

— وأنا أيضاً أحب أن أسمع وصف القاهرة ، فقد طال شوق إلى القاهرة

— تعرف يا سيدى محطة باب الحديد ؟

— أراها يا بنيتى فى طيف الخيال !

— لقد أرهقنا الحمالون ...

— أنت يا ظمياء تتكلمين بلغة السائحين . إن لمحطة باب الحديد سحراً لا تعرفينه يا حمقاء .

« ثم سكتّ لحظة ، فقد تذكرت أنى زرت تلك المحطة أكثر من مئة مرة على غير ميعاد ، لأشهد أسراب المودعين والمودعات فى القطار الذى يقوم إلى بور سعيد كل مساء . وتذكرت أنى كنت أضحى بمكانى فى قطار البحر فلا أصعد إليه إلا بعد أن يدق الناقوس لأمتع عينى وقلبى بالحسن الذى يموج

فوق الرصيف . وتذكرت الفتاة التي استقبلتها في تلك المحطة عند منتصف الليـل في الشتاء الماضي ، تلك الفتاة التي جاءت من نورمنديا خاصة لتزور معي الأهرام في ليـلة قمراء . تذكرت وتذكرت حتى كاد يفضحني الدمع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو وحده يعلم ما يقاسي قلبي من الغربة بين القلوب »

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم اخترقنا شارع كامل

— هو اليوم شارع إبراهيم

— أفادك الله !

— يا لئيمة ، فيك أشياء من دعابة بغداد !

— ثم نزلنا عند أسرة عراقية تقيم في شارع قصر النيل ، وكانت ليلى قد تعبت فظلت في البيت يومين كاملين

— وهل في الدنيا إنسان يرى القاهرة أول مرة ثم يحبس نفسه في البيت يومين ؟

— قلت إن ليلى كانت تعبت ، والحق أن ربة البيت التي نزلنا فيه نهتنا عن الخروج ، لأننا نزلنا القاهرة ملفوفتين بالثياب على نحو ما ترى عقائل بغداد ، وكانت تلك السيدة تخشى إن خرجنا بتلك الصورة أن يرانا الجمهور من الغرباء ، والغريب لا يسلم من فضول النـاس . وفي يومين اثنين أحضرت تلك السيدة الكريمة ما ترى أن نلبس من الثياب . أما أنا ففرحت بثيابي ورأيت أني تجددت ؛ وأما ليلى فقد غضبت أشد الغضب وأعلنت أن الخروج بهذه الثياب ينافي الحياء . وفي الحق أن ليلى بدت في تلك الثياب كالحورية الهاربة من الفردوس ، فقد كان يجب أن تمشي في الجادة [1] وهي سافرة الوجه ، وكان الثوب المصري يكشف بعض الطلائع من صدرها الجميل . ولو رأيت ليلى في تلك الساعة وهي غاضبة لرأيت العجب العجاب ، فقـد توهمت المجنونة أن الشبان المصريين سيخطفونها حين تقع أبصارهم على حسنها الرموق ، ويبلغ بهـا الوهم أن تزعم أن خطفها سيكون فضيحة للعراق

وعندئذ قهقهت ربة البيت وقالت : « اسمعي يا ليلى ، إن المصريات لا يخرجن إلى الشارع بهذا الثوب وإنما يلبسن فوقه المعطف . فسكتت ليلى قليلاً ، ثم لبست المعطف فوق الفستان ، ونظرت في المرآة فرأت أن حالها مقبول ، ولم تر بأساً من الخروج بهذه الصورة لرؤية المعرض »

— ثم ماذا ؟

— وخرجنا فعبرنا جسر قصر النيل

— هو اليوم جسر اسماعيل

— أفادك الله !

— يا مضروبة ، هل تخرجتِ في الأزهر الشريف !

— دخلنا المعرض ، أو دخلت أنا ثم تبعتني ليلى ، وقد كانت على غاية من الهيب والاستحياء ، ثم رأينا أفواجاً من الشبان قيل إنهم طلبة الجامعة المصرية وعلى رأسهم أستاذ يشبه سيدي الطبيب

« وهنا ابتسمت ابتسامة خفيفة لأنه لا يبعد أن أكون ذلك الأستاذ ، فقد كنت صحبت جماعة من تلاميذي لزيارة المعرض ، فيهم ابراهيم رشيد وابراهيم نصحي ومحمود سعد الدين الشريف ومحمود محمد محمود ومحمد عبد الهادي شعيره ومصطفي زيور وعزيز عبد السلام فهمي ومحمد حمدي البكري وعبد الحميد مندور ومحمود الخضيري ، ويسرني أن أقول إنهم أصبحوا اليوم رجالاً يتشرفون بخدمة الوطن الغالي . ثم شعرت بحسرة لاذعة حين تذكرت أنه كان يمكن الفرار من أولئك الطلبة الشياطين لرؤية من في المعرض ، ولعلني كنت أعثر بليلى فأصبح من أقطاب الشعراء ، ولكن ما فات فات فاقتل نفسك إن شئت يا صريع الملاح »

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم طوفنا بالمروضات فلم يرقنا غير مروضات سليم عبده

— مات ، يرحمه الله

— يا عيني ، لقد كان رجلاً لطيفاً ، ومن عنده اشترينا أشياء كثيرة ، وقدم إلينا هدايا لا نزال نحتفظ بها إلى اليوم

— ثم ماذا ؟

— ثم ركبنا القطار ، قطار المعرض ، وكان أمامنا شاب يسارقنا النظر بعينين خضراوين ، فتكلفت الشجاعة وهممت بزجره ، ولكن ليلى ضغطت على يدي فاعتصمت بالصفح الجميل

« للحديث بقية »

زكي مبارك

(١) الجادة في بغداد هي الشارع